الـرقـصـة الأخـــيرة لـعـلـي عـبـد الله صـالـح

كان الرئيس علي عبد الله صالح يصف نفسه أكثر مما يصف الوضع اليمني عندما قال إن حكم اليمن يشبه الرقص بين الثعابين، تأكيداً على أنه يقود مجتمعاً معقداً صعب القياد. والحال أن إدارة سياسية لمجتمع من "الثعابين" تحتاج الى ثعلب راقص. وهذا هو بالتمام الطريقة التي حكم بها صالح اليمن طيلة ٣٤ عاماً لتنتهي حياته، وكذلك الحفل الراقص، ببضع رشقات رصاص، وصيحات الله أكبر .

□ سهيل سامي نادر

جاء الى السلطة في لحظة فارغة: فبعد ١٦ عاماً من حروب عشائرية طاحنة، وانقلابات عسكرية، وتدخل قوات مصرية، واغتيال رئيسين، وتحولات قلبت موازين القوى وأنهكت البلاد، تغطت اليمن كلها بخيمته، فراح من أجل البقاء في السلطة يناور بين دول الخليج والسعودية واميركا وعصابات القاعدة، أما في الداخل فكان هو الثعلب الراقص.

عسكري نافس عسكريين، ومباشرة بعد صعوده الى منصب رئيس الجمهورية، قام في عام ١٩٧٨ بإعدام ٣٠ شخصاً بتهمة التآمر على قيادته، ثم حوّل نفسه بالتقادم، بالحيلة، بالخطب السياسية، الى بطريارك من نوع جديد، فراح يقلّم أظافر التحالفات القبلية التقليدية، بالإفساد، والاغتيال، وبالصراخ الوطني الدولتي، واضعاً حزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم الذي شكّله في جيبه، ومراكز الدولة في الجيب الآخر، والعشائر في جيب ثالث. إنه بطريارك على الطريقة المشرقية، قائد يجمع المجد من أطرافه، رئاسة الحزب ورئاسة الجمهورية وقيادة الجيش وتحالفات قبلية من زعماء جرى إفسادهم، وتسليم المواقع الحساسة في الدولة بيد عائلته. حسب التقارير الدولية كان اليمن في عهده أفسد الأنظمة، قبل أن يحصل النظام السياسي العراقي الحالي على هذا اللقب بامتياز.

حاز على لقب بطل الوحدة اليمنية، بعد أن قام بتسويف مطالب اليمنيين الجنوبيين، وتآمر على الحزب الاشتراكي اليمني، ثم خاض حرباً دموية ضد جمهوريتهم ونزعتهم الاستقلالية بالتعاون مع السعودية والخائن القديم عبد ربة منصور هادي.

بعد عام من ثورة ١١ فبراير ٢٠١١ الشعبية غادر صالح السلطة بموجب "المبادرة الخليجية" الموقّعة بين حزب المؤتمر الشعبي العام وأحزاب اللقاء المشترك التي أقرت إجراء انتخابات نيابية، وإعفاء صالح من الملاحقة القانونية، وتولي نائبه عبد ربه منصور هادي رئاسة المرحلة الانتقالية.

والحال أن هذا الحل عكس مخاوف دول الخليج ولاسيما السعودية من تحقق شعارات الثورة الشعبية المطالبة بالتغيير الديمقراطي ومحاسبة الفاسدين وإقامة نظام عادل محكوم بالقانون والدستور . هذا الخوف من الديمقراطية ومن الإصلاح دفع رجلاً ضعيف الشخصية ذا نزعة إدارية كهادي الى الواجهة، وجعل من علي عبد الله صالح يتغول وينقلب على الاتفاق ويسيطر على السلطة بالتعاون مع أعدائه الحوثيين .

عند هذا المفصل اجترح مكر التاريخ حكاية تتصف بالخبث، فدول الخليج والسعوديون الذين تطيّروا من الثورة الشعبية وشعاراتها الديمقراطية والاصلاحية، وجدوا أن صالح الذين أنقذوه مرتين، مرة بالتداوي من الحروق في مستشفى سعودي، ومرة حافظوا على حياته وموقعه السياسي، خان الاتفاق ووضعهم وجهاً لوجه أمام عدو صريح مسلّح أعاد تشكيل ايديولوجيته المعادية للنظام الجمهوري بنظرية الولي الفقيه الإيرانية.

إزاء ذاك جرب صالح أكثر الرقصات الخطرة في حياته، إذ جلب أعداءه القدامى من الحوثيين الحاقدين الى العاصمة صنعاء، وسلّمهم قيادات عسكرية ووزارات ومواقع ادارية ولوجستية. كان هذا الخطأ يبدو غير مفهوم نظراً لتاريخ علاقته بالحوثيين التي اتصفت بالعداء والحرب المكشوفة، وهو من قتل مؤسسهم حسين بدر الدين الحوثي، فإذا به يتعاون مع شقيقه عبد الملك .

الواقع أن تعاون الحوثيين مع صالح أملته تطلعاتهم الى الإمساك بالسلطة عن طريق الاحتماء بحلف قوي يخفي حجمهم العددي والسياسي . أما صالح المعتاد على الألعاب فقد احتاج الى جماعة شرسة من المقاتلين الأشداء الذي خبر قتالهم، يستطيع أن يخيف بهم السعوديين ويفاوضهم على الاعتراف به وعدم المساس بسلطانه .

كانت تلك مغامرة غير محسوبة اندفع إليها صالح بسبب موقف السعودية التي بدلاً من أن تقيّم الوضع بحكمة، شنّت حرباً جوية مدمّرة أساءت اليها أكثر مما حققت نتائج سريعة، بل إن حملتها قوّت موقع الحوثيين العسكري والسياسي داخل العاصمة صنعاء والجيش، ولاسيما أن عبد ربه منصور الذي قاد الفترة الانتقالية أجرى تغييرات كبيرة على الجيش، إذ حل الحرس الجمهوري، وأحال قادة امتلكوا الخبرة على التقاعد أو عيّنهم سفراء، وأجرى تغييرات عديدة أضعفت القوات المسلحة وبدّدت قدراتها الاستخبارية.

في وضع شائك، في لحظة من لحظات العداء الشرس بين السعودية وايران، وبينما كانت الاولى تواصل حربها مستخدمة هادي المستعد لبيع نفسه، وبعد أن بات الحوثيون الأكثر تنظيماً وجهادية من تنظيم المؤتمر الشعبي الفاسد يسيطرون على اسلحة الجيش الوطني، وأموال الدولة، كما حصلوا على مساعدات ايرانية شملت الأسلحة بما فيها الصواريخ بعيدة المدى والمدربين العسكريين، قام صالح بانقلاب جديد ، متهماً الحوثيين بالطائفية والرجعية واللصوصية، مطالباً شعبه الالتفاف حوله، ومبدياً الاستعداد للتفاوض مع التكتل العربي بقيادة السعودية. هل كان يأمل أن تقوم السعودية بمساعدته على نحو عاجل ويبدأ معها رقصة جديدة ؟ لكنه بدأ انقلابه من لحظة ضيق، ولم يمتلك الوقت الكافي للتخطيط والاتصال . فات الأوان على الرقص، وعلى ألعاب السياسة التي تحتاج الى زمن. لا زمن إضافي . لا زمن مستقطع. انتهت اللعبة. انصرفت عنه قوى كبيرة، أما الأفاعي التي كان يرقص فوق رؤوسها فتحوّلت الى عرابيد .

لقد حكم طويلاً، وأسقط اليمن بنفسه داخل الفوضى والحرب الأهلية وحرب التحالف العربي، وسلّم للحوثيين مفاتيح مدن مهمة بما فيها العاصمة. كان يعرف أن الحوثيين الذين حاربهم طويلاً ما زالوا يحتفظون بتذكارات نظام الإمام بدر الرجعي وثاراته، وأكثر من هذا أعادوا صياغة الزيدية وفق أهداف الولي الفقيه الإيرانية، ولاسيما جماعة "أنصار الإسلام" من الحوثيين. الا أنه واصل اللعب غير مكترث بالتطورات الجديدة ، شاعراً أن لا شيء تغيّر في اليمن منذ أن باتت في قبضة يده، وأنه هو الزيدي، سيعرف كيف يتبارى مع أقلية زيدية ذات أهداف غريبة عن تقاليد اليمن !

يخبرنا التاريخ اليمني بمكر أقدم من مكر علي عبد الله صالح والحوثيين والمواقف العربية، حين وقفت السعودية عسكرياً مع الإمام البدر الذي ينتمي الى الطائفة الزيدية بعد انقلاب عبد الله السلال (١٩٦٢) المؤيد من قبل جمال عبد الناصر والجيش المصري . كانت المصطلحات السياسة آنذاك تتحدث عن نظام الإمام بوصفه نظاماً رجعياً، وجد في النظام الديني السعودي، والانكليز، سنداً. آنذاك كان القاموس السياسي والفكري يعمل بقوة مقروءاً من قبل قوى التغيير بمواجهة الرجعية، ولم يكن نظام ولاية الفقيه موجوداً. الآن يشعر السعوديون بالخطر من زيدية حوثية مارست دوراً سياسياً مستقلاً، والجزء العقائدي منها ، وربما قيادتها بأكملها وجدت لها نسباً في ولاية الفقيه.

بعد كل هذا الزمن باتت الزيدية كأنها بلا تاريخ غير تاريخ ظهور الحوثيين، وحزب أنصار الله . كأن الزيدية اكتشاف خارج الملابسات السوسيولوجية اليمنية، خارج الرثاثة التي ما انفكت تنتج متآمرين ولصوص مناصب وصراعات عشائر وعوائل المحميين بالقتلة . إن الحوثيين الذين امتلكوا مطالب عادلة، وكانوا جزءاً فاعلاً من لجنة الحوار الوطني قبل أن يصطفوا مع المخلوع علي عبد الله صالح، وحصلوا على مكاسب كبيرة بطريقة سلمية، كما حصلوا على مساعدة اميركية في الحرب ضد القاعدة، تحولوا فجأة الى كماشة نار، وتقاسموا المغانم مع قاتل، وباتوا مثل جميع انتهازيي العربان، يورّطون الآخرين في أخطائهم وتحالفاتهم، ولا سيما بعد أن وجدوا في ايران حليفاً عقائدياً.

إزاء ذلك فإن إيران المذهبية، المدفوعة بالمشابهة الطائفية والأحلام الامبراطورية الخرقاء، واهمة إذا اعتقدت أن الفرع الزيدي عاد الى الأصل الشيعي المتمثل سياسياً بولاية الفقيه .

ثمة انقسام سياسي وفقهي ديني وايديولوجي يقاد من قبل السعودية وايران راح يتدخل في الخيارات السياسية للمنطقة. هذا الانقسام هو في الحقيقة استمرار لشرخ قديم في أمة كسولة لم تجدد دينها ولا أخلاقها، وما زالت تعبد الأموات. فيما يخص اليمن لا يبالي الطرفان بمصالح اليمنيين في الواقع، لكنهما يتحركان وفق غرائز مظلمة . كلاهما يلغي الزمن السياسي الحقيقي للأحياء لمصلحة أفكار طائفية خرقاء . كانت هناك فرص حقيقية لولادة يمن جديد يسود فيه القانون فوق قوانين العشائر والطوائف جرى تبديدها بتدخلات ذات اهداف عقائدية . الآن يعاد لليمن سمعته كبلد عاص لا تُربح فيه حرب ولا تدوم فيه اتفاقات سلام .. بلد ثعابين وراقصين.

بعد كل هذا الزمن باتت الزيدية كأنها بلا تاريخ غير تاريخ ظهور الحوثيين، وحزب أنصار الله . كأن الزيدية اكتشاف خارج الملابسات السوسيولوجية اليمنية، خارج الرثاثة التي ما انفكت تنتج متآمرين ولصوص مناصب وصراعات عشائر وعوائل المحميين بالقتلة .

بـغـداد وعـــدن.. قـبـل الحـوثـيـين وبعدهم*

□ رشيد الخيون

تعود بنا الذّاكرة إلى ما قبل الوحدة اليمنية (١٩٩٠)، حيث وجود عدن وصنعاء كعاصمتين لدولتين، وكيف كانت العلاقة بينهما وبغداد آنذاك من جهة، وبينهما والمعارضة العراقية من جهة أُخرى، خلال الحرب العراقية الإيرانية؟! يوم لم يكن هناك جماعة تحت مسمّى «الحوثية»، ولا فَكّر الزّيدية باليمن يومها بإنشاء تنظيم وميليشيا، بقدر ما كان اليمنيون يصلّون في مسجد واحد، بلا تركيز على وجود عبارة «حيَّ على خير العمل» من عدمها.

كان الموقف خلال الحرب العراقية الإيرانية، بين العاصمتين اليمنيتين، بعيداً عن المذهبية، علي عبدالله صالح (الزّيدي) مع العراق، وعلي ناصر محمد ورفاقه (الشافعيون) كانوا، إلى حدٍّ ما، مع إيران. لم يُحدَّد هذا الموقف بعروبة صنعاء وأُممية عدن، ولا ببُعد الجنوبيين عن الدِّين وقرب الشّماليين منه، فلو فُسرت المواقف هكذا، فالنّظام الإيراني نظام دِيني مذهبي، لا يربطه رابط بعدن، بينما النّظام العراقي السّابق كان لا دينياً، وفقاً لطابعه الحزبي. إنما المُحدد للمواقف هو قرب صنعاء من نظام «البعث»، وبُعد عدن عنه، والغرور بالثورة الإسلامية.

كنا نسمع عن عراقيين في معتقلات إيران، وعلى الخصوص من قادة الحزب الشّيوعي العراقي، وأن نظام عدن توسط أكثر من مرة لإطلاق سراحهم، وذلك وفقاً للقرب من طهران والبعد من بغداد، لاختلاف التّوجه العقائدي، والذي فجره بقوة اغتيال أستاذ الفلسفة في جامعة عدن المعارض العراقي توفيق رُشدي (١٩٧٩)، فحينها بث تلفزيون عدن اعترافات منفذي الاغتيال عبر جلسات المحاكمة، ومن يومها انقطعت العلاقات بين البلدين، واستمرت مقطوعة حتى (١٩٨٢)، مقابل قوتها بين صنعاء وبغداد.

أثر هذا على العلاقة بين العاصمتين اليمنيتين وطهران بعد الثورة، إلى جانب ما يتعلق بمقاتلي ظفار (قبل الثورة الإيرانية)، فعدن داعمة للثوار، وطهران الشّاه والرياض ومصر ضدهم، تضامناً مع سلطنة عُمان، وهنا ندخل في استغراب آخر، ألا وهو كيف يُوصف النّزاع، مع طهران، بعد الثورة بالطائفي، وكانت عواصم سُنية تقف إلى جانب عاصمة شيعية وأخرى إباضية، ضد عاصمة سُنية وهي عدن؟! هذا، وموقف الرِّياض السُّنية مع صنعاء الزّيدية معروف (١٩٦٢-١٩٧٠)، بمعنى أن المذهب ليس هو المحرك، وإنما يُتخذ شعاراً ودثاراً.

ألا يدفعنا هذا إلى تأكيد أن الطائفية تُرفع ورقة لإيجاد مناطق نفوذ! بينما المهووسون بها يحسبون النزاع الدّائر مع إيران على أنه نزاع شيعي- سُني! يُضاف إلى ذلك أن ثوريين، تروتكسيين ولينينيين وناصريين، وثوريو عدن بينهم، توهموا بالثورة الإيرانية، واعتبروا الخميني (ت١٩٨٩) سبارتكوس زمانه! ولم يثرهم تشكيل الشّرطة الدِّينية، ولا فرض الحجاب، وإظهار التقدميين أذلاء على شاشات التلفزيون ليعترفوا بأنهم عملاء، وكانوا مشاركين فاعلين في الثورة.

عندما دخل صالح في حرب مع الحوثيين، بعد رفعهم شعار الثورة الإيرانية، ظهر الصّوت الطائفي ضده ومعه، عدّه الشيعي من حلفاء نظام «البعث»، بينما اعتبر السُّني أنه يحارب عصابة «خرجت وشقت»! ولكن المضحك، ما أن عاد صالح متحالفاً مع الحوثيين، واجتاحت عساكره معهم عدن، بعد الانقلاب على التسوية، حتى برز الصّوت مختلفاً، فأصبح صالح صديقاً، لتحالفه مع الحوثيين.

لم أكن أحسبُ للطائفية حساباً، إلا بعد اجتياح جيش صالح لعدن (صيف١٩٩٤)، والتقيت بمعارضين دينيين عراقيين حينها بلندن، فسمعتهم يتحدثون عن الحقِ مع صنعاء الزّيدية والباطل مع عدن الشافعية! بينما اليمنيون أنفسهم قبل ذاك قد استهزؤوا بمَا قيل في ظل الإمامة: «إحنا شوافع والمذاهب أربعة والمذهب الخامس مسيح»! كان ذلك قبل الكسب المذهبي الخطير، من قبل السّلفيين ممثلين بمعهد «دماج» ومؤسسه مُقبل الوادعي (ت٢٠٠١)، المتهم بالعلاقة مع جماعة جهيمان (أعدم ١٩٨٠)، وردة فعل الزّيدية ممثلين بالحوثيين وقائدهم حسين بدر الدِّين (قُتل٢٠٠٤)، رافع شعار الثورة الإيرانية مذهبياً.

كيف تتغير المواقف، وبهذه السرعة، وفقاً للعاطفة الطّائفية العابرة للعقل؟! فمن الجائز أن نشوب الحرب هذه الأيام بين صالح (الزّيدي) والحوثي (الزّيدي) أيضاً، سيقلب العواطف، ويعود صالح عدواً عند البعض وصديقاً لدى الآخر. ينعكس ذلك التبدل في المعضلة اليمنية على مواقف بغداد، من يوم استقبالها للوفد الحوثي، والصراخ في البرلمان تضامناً، مع تناسي تحالفها مع صالح، أقول: لا يُستبعد أن يُفكر البعض بإرسال مَن يُقاتل إلى جانب الحوثيين ضد صالح، مثلما كان يُفكر بالقتال إلى جانب الاثنين يوم كانا على وفاق.

لأبي العلاء (ت٤٤٩هـ) في عجائب الدَّهر، وعجيبة تفسير السِّياسة بالمذهبية واحدة منها: «تفوه دهركم عَجباً، فأصغوا/ إلى مَن ظل يخبرُ يا شهودُ/إذا افتكر الذين لهم عقولٌ/ رأوا نبأً، يحقُّ له السُّهودُ» (لزوم ما لا يلزم). إنه صوت الطّائفية الجامح، يصبح فيه رؤساء العصابات ملائكة! أفٍّ، لعقائد لم تجد غير المذهب وقوداً.

■ عن: "الاتحاد" الإماراتية

مـــن دروســـــــن الـــتـــأريـــخ

□ حسين الصدر

-١-

الإنسان العاقل لا يُقدم على المغامرات ولا يرتجل القرارات وإنما يرسم الخطط بكل تأنٍ ودقّة، للوصول الى الحل السليمً والطريق المستقيم .

-٢-

ومع التأني السلامة، ومع الحماقة والعجلة الندامة، وتلك هي التجربة التي لا يختلف عليها اثنان .

-٣-

وأحقّ الناس باتخاذ القرارات المدروسة بعيداً عن الغلظة والقسوة والتهور، هم السياسيون وبذلك يوفرون على أنفسهم الكثير من المشاق والصعوبات ويتجنبون الفادح من الخسائر...

-٤-

ومن دروس التاريخ الكثيرة نستل درساً واحداً فقط، وهو موقف (مالك بن نويرة) لفك أخيه من الأسرْ

جاء في كتاب الوافي بالوفيات لابن شاكر الكتبي ج٣ ص ٢٣٥-٢٣٦

" قال عمر (رض) لمُتمم :

أكان مالك يُحبّك مثل محبتك إيّاه؟

فقال :

أين أنا من مالك ؟

والله يا أمير المؤمنين لقد أسرّني حيّ من العرب فشدوني وثاقاً، وألقوني بفنائهم،

فبلغه خبري فأقبل عليّ على راحلته حتى انتهى الى القوم وهم جلوس في ناديهم،

فلما نظر اليّ أعرض عني وقصد الى القوم،

فعرفتُ ما أراد،

فوقف عليهم فسلّم وحادثهم وضاحكهم،

فو الله مازال حتى ملأهم سروراً، وأحضروا غداءهم، فسألوه النزول يتغدى معهم ففعل، ثم نظر إليّ وقال :

ليقبح بنا أن نأكل ورجل مُلقىً بين أيدينا لا يأكل معنا وأمسك عن الطعام،

فقام القوم اليّ،

وصبوا الماء على قيْدي حتى لان وحلّوني،

ثم جاءوا بي وأجلسوني معهم على الغداء،

فلما أكلنا قال لهم :

ما ترون تَحَرّم هذا بنا وأكله معنا، وانه لقبيح بكم أنْ تردوه الى القيد،

فحلّوا سبيلي وأطلقوني بغير فداء.

أقول :

وبهذه الطريقة الذكيّة الهادئة أنقذ مالك بن نويرة أخاه مُتمماً وموطن العبرة :

إننا يجب أن نفكر بالطرق العملية لحل مشاكلنا، بعيداً عمّا؟ لا لزوم له من المزايدات والمفارقات والممارسات الفجّة ...

إنّ ابراز العضلات في غير الحرب، ليس له ما يُبرره اذا كان يمكن الحلّ دُونَ استعمال القوة والعنف .

إنّ مالك بن نويرة استطاع أنْ يطلق أخاه متمماً من الأسرْ من دون فدية أصلاً، وتلك هي أكبر علامات النجاح في تحقيق الهدف، ومثْلُ هذه القصة ونظيراتها من الحكايا المودعة في كتب التاريخ والأدب والتراجم يمكن أنْ تُسهم في تلطيف حدّة الأجواء المحتقنة، لو أُخذت بنظر الاعتبار ..

ولكن :

أين هم القُرّاء الواعون للتاريخ ؟

وأين هم المعتبرون من أحداثه ووقائعه ورجاله ؟

-٥-

ومن الجميل أن نُذكّر بان إخوّة " مالك " و "متمم " أصبحت مضرب الأمثال في القوة والعمق .

وقد ذكروا أنه قيل لمتمم :

" ما بلغ من وجدك على أخيك ؟

فقال :

أصبتُ بإحدى عينيّ، فما قطرت منها قطرة عشرين سنة ، فلما قُتل أخي استهلّت فما ترقأ "

لم تكن تهدأ عينه من تسكاب الدموع حزناً على أخيه القتيل المظلوم ...

لا لذنب اقترفه وإنما لعلة في نفس القاتل وإنما لعلة في نفس القاتل لم يرضها (الفاروق(.!!

وهذه الإخوّة الصادقة هي الأخرى لا بُدَّ أن تستلهم معطياتُها في الراهن، بعد أنْ تم الإعراض عن الالتزام بمدلولها الحقيقي تغليباً للمصالح على القيم الأخلاقية .